١ ــ التحريض

حذّر الشيخ عزالدين القسام المصلين، في احدى خطب الجمعة عام ١٩٢٧، من التساهل مع الهجرة اليهودية «التي تحتل البلاد وأنتم فيها»[١٩]. ودعاهم الى استقبال هذا العدو، القادم بعربات الانتداب البريطاني وحمايته «كعدو لا كمهاجر أو ضيف»[٢٠]. ثم خاطب المصلين محاولاً استثارة حماستهم: «ألا تخجلون أن تكون لحية الكلب أطهر من لحاكم في يوم من الأيام عند الله؟»[٢١]. «اجمعوا أنفسكم واذهبوا الى نجـع عرب، فاذا سمحوا للكلب نكون كالكلب، واذا منعوه، فتكون فيهم الشهامة والرجولة لمنع الكلاب من تدنيس حرمات بيوتهم»[٢٢]. وفسرّ الكثيرون دعوة القسام هذه، على أنها مبـالغة لاستثارة همم الشباب، وسخروا من قوله بأن «اليهود ينتظرون الفرصة لافناء شعب فلسطين والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم»[٢٣].

وفي أواخر عام ١٩٣٤، سأل القسام المصلين جهاراً: «هل أنتم مؤمنون؟» وأجاب: «لا أعتقد!»، وسكت قليلاً، فسرت ضجة وهمهمة؛ والأنظار كلها مشدودة نحوه، تواقة لسماع تفسيره: «لأنه لو كنتم مؤمنين لكانت عندكم عزة المؤمن. فاذا خرجتم من هذا المسجد وناداكم جندي بريطاني فستهرولون نحوه»[٢٤].

وعلى لسان الناس، أصبحت أقواله تتردد في المسجد؛ وهي أقوال تدعو، جميعها، الى الجهاد مثل: «الجهاد رفيقه الحرمان»[٢٥]، «المجاهد رائد قومـه والرائد لا يكـذب أهله»[٢٦]، «يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال»[٢٧]، «لقد فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة»[٢٨]، «أيها الرجال! يا نساء وشباب فلسطين! البلاد في خطر»[٢٩]. وبذلك كان «أكثر المشايخ تطرقاً لضرورة الجهاد، ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين»[٣٠].

ولم تكن دعوته للجهاد معزولة عن مجمل أفكاره ومواقفه. فمن خلالها، انتقل من التلميح الى التصريح في نقد الظواهر السلبية دينياً ووطنياً، وفي الافصاح عن منهجه في العمل، من خلال تقديم النموذج بنفسه. ولأنه لا ثورة بدون أسلحة، هاجم القسام سياسة المجلس الإسلامي الأعلى في تزيين المساجد وبناء الفنادق وقال: «يجب ان تتحول الجواهر والزينة في المساجد الى أسلحة، فاذا خسرتم أرضكم كيف ستنفعكم الزينة وهي على الجدران؟»[٣١]. وكانت موازنة الأوقاف حينها «تزيد عن نصف مليون جنيه من الجنيهات الاسترلينية التي كان بالامكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها»[٣٢]. ودعا مرة المسلمين الى تأجيل الحج، وتحويل نفقاته الى شراء الأسلحة، لأن «الجهاد أولى من اداء فريضة الحج»[٣٣].

وسئل مرة عن رأيه في أساليب الحركة التقليدية، المعتمدة على محاورة الانكليز بالطرق الشرعية، فأجاب اجابة قصيرة مكثفة: «من جرَّب المجرَّب فهو خائن.. والمؤمن اذا قال صَدق واذا قيل صدّق»[٣٤]. وفي شرحه للجملتين قال: ان الحركة الوطنية لا تستطيع الثقة بالانكليز مجدداً، بعد تجربة الهاشميين في مكة وبغداد، وبعد تجربتها هي منذ الاحتلال حتى الآن. ولا يستطيع المؤمن أن يحاور المستعمر لنيل حقوقه بالاقناع. لأنه يجب أن لا يصدقه أو ان يكون صادقاً معه، وفي الحالتين، فقد تحول الهاشميون من رواد ثورة الى خونة لها، لأنهم اعتمدوا هذا السبيل. ووصفت ابنته ميمنة حادثاً صريحاً